Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٤

والتعبير بالصورة خاصية شعرية ، ولكنها ليست خاصة بالشعر ، لقد أثرها التعبير القرآنى والحديث النبوى كثيراً ، واعتمد عليها المثل كما فضلتها الحكمة ، ولنقرأ هاتين الآيتين من سورة البقرة : « ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير . أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون » . وللقرآن صور بيانية وغير بيانية لم يسبق إليها وإن جرت على سنن التعبير العربى ، ومن الطريف أن يستقصى ابن قتيبة ألوان البديع فى القرآن أو أكثرها ويستشهد بالشعر لاستخراج أو تقرير المصطلح البلاغى الذى يدرجها تحته ، ثم يرفض اعتبارها من دلائل إعجازه فيقول : « وقد قدر مقدرون أنه يمكن استفادة إعجاز القرآن من هذه الأبواب التى نقلناها ، وأن ذلك مما يمكن الاستدلال به عليه . وليس كذلك عندنا ، لأن هذه الوجوه إذا وقع التنبيه عليها أمكن التوصل إليها بالتدريب والتعود والتصنع لها ، وذلك كالشعر الذى إذا عرف الإنسان طريقه صح منه التعمل وأمكنه نظمه »[٧] . وليست قضية الإعجاز هى موضوعنا الآن . ولكننا نرى أن البديع كما بينه موهبة وليس تعلماً إلا أن يكون تصنعاً ، على أن مسلك ابن قتيبة فى كتابه يناقض قوله إلى حد بعيد . لقد بذل جهدا متصلا فى تفنيد أسباب الإعجاب بأشعار الجاهليين ، امرئ القيس خاصة ، ومردها فى جملتها إلى ما سبقوا إليه من استعارات وتشبيهات فضلا عن جودة السبك ودقة التصوير ، لكى ينتصر فى النهاية للتصوير القرآنى ويقر له بالتفوق . وهناك خبر يروى عن أبى تمام ، أنه حين قال :

لا تسقنى ماء الملام فإننى صبٌّ قد استعذبت ماء بكائى

جاءه من يحمل بيده إناءً ويسأله ساخراً أن يمنحه بعضاً من ماء الملام ! فما كان من أبى تمام إلا أن قال : سأفعل إذا أحضرت لى ريشة من جناح الذل !

(٧) إعجاز القرآن ص ١٠٧ .